

عقيدة الفلاسفة في علم الله عز وجل

أ.د. محمد بن محمد بن
حميد الكلب

يتردد الفلاسفة فيما يعتقدون من ثبوت صفة العلم لله - سبحانه وتعالى -
بين مذهبين .

المذهب الأول

يقرر أن الله - سبحانه وتعالى - يقولون علواً كبيراً - لا يعلم من شأن
هذا الوجود شيئاً قط . ولكنه يعلم ذاته فقط ، أو يعقل ذاته فقط ، أما
ما سواه من عالم أو عوالم فلا يعلم عنها قليلاً ولا كثيراً ، ولا يدري من
شأنها وجوداً أو عدماً .

وهم يقررون هذه العقيدة فيقولون :

١ - إن الله - عز وجل - عقل محض ، لأن العقل هو أسمى الموجودات
وأعلامها وأفعالها ، لذلك كان الله - سبحانه - عقلاً محضاً ، بل هو أكمل
العقول ومبدؤها ، ومنه تصدر أو صدرت العقول في نظريتهم المعروفة
بنظرية الصدور ، والتي يوضحون بها العلاقة بين الله - تعالى - والعالم .

٢ - وإذا كان الله تعالى - عقلاً ، فهو عاقل ، لأن العقل وظيفته أن
يعقل ، والغاية منه أن يكون عاقلاً ، ولا قيمة لعقل لا يعقل ، لأنه في هذه
الحالة يكون قد فقد شؤفه ، ولم يحقق الغاية من وجوده . إذ أن شرع كل
وجود إنما يكون في القيام بوظيفته ، وتحقيق الغاية من وجوده ،

فشرّف العقل في أن يكون عاقلاً . والله . سبحانه عما يقولون . هو العقل الأكمل ، وهو مبدأ العقول ، فلا بد أن يكون عاقلاً .

٣ - وإذا كان الله - تعالى عما يقولون - عقلاً ، وكان ذلك العقل عاقلاً ، فأى شيء يعقل ؟ أو ما الموضوع الذي يعقله ؟ أو ما الشيء الذي يكون موضوعاً لعقل الله - تعالى - ؟

هل يعقل الله - تعالى - ذاته فقط ؟ ولا يعقل غيره ؟

أو يعقل غيره من الموجودات فقط ؟ ولا يعقل ذاته ؟

أو يعقل ذاته ، ويعقل غيره من الموجودات معاً ؟

يجيب الفلاسفة عن هذه الأسئلة بأن الله - تعالى عما يقولون - لا يعقل إلا ذاته فقط ، ولا يعقل شيئاً من الموجودات على الإطلاق .

وإذا ما سألناهم : لماذا لا يعقل الله - تعالى عما يقولون - إلا ذاته فقط ؟ ولماذا لا يعقل الموجودات كلها ؟

أجاب الفلاسفة بأن الله - تعالى - كمال مطلق ، وجمال مطلق ، وغير مطلق ، والموجودات سوى الله - تعالى - أقل منه كمالاً أو هي ناقصة ، فلو عقلها الله - تعالى - أي حلت في عقله ، أي أصبحت موضوعاً حالاً في عقله وهي ناقصة . فإن هذا يعني أن النقص حل في ذات الله ، لأن الله تعالى - عقل - وقد عقل ذلك العقل الأشياء الناقصة ، فيكون النقص قد حل أو وجد في ذات الله . وذلك محال ، لأن الله - سبحانه - منزّه عن النقص ، والله - تعالى - منزّه عن النقص بوجهيه المروطين :

١ - فهو - تعالى - منزّه عن النقص في ذاته ، وذلك بأن تكون ذاته ناقصة .

٢ - وهو - تعالى - منزّه عن الاتصال بالنقص . بأن يكون محلاً للنقص .

وإذن ، فإن علم الله - تعالى - بالأشياء يؤدي إلى حلول النقص في ذاته أو كونه محلاً للنقص ، وذلك محال وهو باطل . فبطل ما أدى إليه ، وهو كونه - تعالى - يعلم غيره أو عالماً بغيره . وثبت نقيضه وهو كونه - تعالى - بما يقولون علواً كبيراً ، لا يعلم إلا ذاته ، ولا يعلم شيئاً في الوجود قط .

الآن أصبح مما سبق أن عقيدة الفلاسفة ، أن الله - تعالى - بما يقولون - لا يعلم إلا ذاته - وأنه - تعالى - عقل - وهذا العقل قائل ، وهذا العقل العاقل لا يعلم إلا ذاته أو نفسه . وبذلك وصف الفلاسفة الحق - سبحانه - وتعالى - بأنه : عقل ، وعامل ، ومقول .

ذلكم هو مذهب الفلاسفة ، أو هو دين الفلاسفة الذي يدين به معظامهم . بل هو المذهب أو الدين الذي يدينون به جميعاً بلا استثناء . فهذا الذي أوردناه هو دينهم وعقيدتهم ، ويأتي ما سواه من المذاهب في هذا الباب من باب التورية والنعمة ، حتى لا يكشف الناس ضلالهم ولذيقهم ، ويعروم من لباس الإيمان الزائف الذي ينزويون به ويلبونه أمام الجماهير المؤمنة .

و نحن لا نتجنى على القوم ، ولا نفترى عليهم ، ولكن مذاهبهم التي التزموا ، وعقائدهم التي اعتقدوا ، والبناء الفلسفي الذي بنوا ، كل هذا لا يستقيم إلا بناء على حقيقة أن الله - تعالى - بما يقولون ويعتقدون - لا يعلم إلا ذاته فقط ، ولا يعلم من الوجود شيئاً ولا كثيراً ، ونحن نضرب لذلك مثلاً بقضيتين من القضايا الأساسية في فلسفة القوم .

الأولى : عقيدتهم في علاقة الله - تعالى - بالعالم ، وكيفية وجود هذا العالم من الله سبحانه .

فهم يعتقدون بنظرية تسمى : نظرية الصدور ، أو « نظرية الفيض » . وهي نظرية يفسرون بها وجودهم كيف وجد هذا العالم من الله ، (١٠ - حولية أصول الدين - ج ٧)

ويعتقدون بأن الله - تعالى - لم يخلق العالم بإرادته وقدرته ، ولم يدبره بعلمه وحكمته ، ولكنهم يؤمنون بأن العالم - صدور - عن الله - تعالى - كما تصدر الحرارة عن النار ، والضوء عن الشمس ، وهذا يعني أن الله - تعالى - عما يعتقدون - لم يخلق العالم من إرادة ولا قدرة ولا علم .

الثانية : قولهم بأن الله - تعالى - عما يقولون علواً كبيراً - فاعل بالعلة ، وليس فاعلاً بالاختيار .

وهم يعنون بهذا نفس المعنى السابق . من أن الله - تعالى - عما يقولون - لم يخلق الأشياء بحكمة وعلم وإرادة وقدرة ، وإنما هو علة لها ، والعلة التامة إذا وجدت صدرت عنها مملولاتها دون إرادة أو مشيئة أو علم .

هذان المثالان من عقائد القوم وتضاييا فلسفتهم الأسامية ، أثبت أن عقيدة القوم التي لا مراء فيها : أن الله - تعالى - عما يعتقدون - لا يعلم إلا ذاته فقط ، ولا يعلم ما سواها .

• • •

المذهب الثاني :

ويقررون فيه أن الله - تعالى - عما يقولون - يعلم الموجودات كلها ، ولكنه يعلمها بصورة كلية شاملة .

وهم يعنون بذلك أن الله - تعالى - عما يعتقدون - يعلم الأشياء بقوانينها العامة الكلية المتصلة بالاجناس والأنواع والأشخاص أيضاً ، ولكنه بعيداً عن الزمان والمكان والهيئات والأحوال ، - فأنه تعالى - يعلم بوجود سموات ، ولرطيم ، وأنجناس من المخلوقات وأنواع ، منها البشر ، وأن من البشر من مصلين وكافرين ، وأن منهم يبحث أنبياء ، ومن الأنبياء من اسمه

محمد - ﷺ -

لكن هذا العلم هو على هيئة كلية شاملة ، لا ترتبط بزمان ولا مكان ولا هيئة ولا حال . فلا يدخل في علم الله - سبحانه - العلم بأزمانه الأشياء وأمكنها ، فاقه - تعالى - لا يعلم إن كان محمد عليه الصلاة والسلام - قد بعث ، أو أنه لم يبعث ، أو أنه الآن مبعوث . ولا يعلم هل هاجر رسول الله محمد عليه السلام من مكة إلى المدينة أو أنه لم يهاجر بعد . ولا يعلم على أية هيئة كان هذا النبي العظيم ولا ما كانت أحواله . هذه الأشياء وغيرها لا يعلمه الله ، أو هو لا يدخل في علم الله . وليت شعري ، إذا كان الله تعالى فيما يعتقد القوم - يجهل زمان محمد - ﷺ - ولا يعلم متى يوجد ، ومتى يرحل ، ومتى يهاجر ومتى يستقر ، وأين يهاجر وأين يستقر ؟

إذا كان الله تعالى - يجهل كل شأن محمد ﷺ - فكيف هي به ؟

وكيف رماه وحفظه وكيف عصمه من الناس كما وعد - سبحانه -
في قوله : [وإنا لله يعصمك من الناس] .

أدلة للفلاسفة على مذهبهم :

لقد ذكر الفلاسفة أدلة كثيرة على صحة ما ذهبوا إليه من نفي علم الله - تعالى - وإنكار ثبوت صفة العلم به - هو وجل - .

أما أدلتهم على المذهب الأول :

فلقد ذكرناها في سياق الحديث عن المذهب ، وهو ادعاؤهم أن علم الله تعالى - بالأشياء يلحق النقص به - سبحانه - ، وأن كمال الله - تعالى - لا يكون إلا في أن يعلم ذاته فقط ، ويجهل كل شيء . عما سواه ، بل ويجهل ما سواه أصلاً .

وإن تعجب فحجب كيف عينت أعيان هؤلاء القوم وصائرهم حتى
صكروا الأشياء، فأروا الكمال نقصاً، والنقص كمالاً؟ كيف وأروا الكمال
لا يتم إلا بحوله - سبحانه - كله شيء، وكيف وأروا النقص في أن يعلم كل
شيء؟ كيف تعمى بصيرة الإيمان حتى يرى الجمل كمالاً، والعلم نقصاً؟
بل كيف سوغت لهم أنفسهم أن يثبنوا لأنفسهم العلم، ويثبتوا قدر تعالى به
نقيضه، بل كيف قبلوا أن يصفوا الله - تعالى - بما ألو وصف به
أحدهم لنفسه واجتهد في أن يزنه نفسه عنه؟ إن هذا الشيء عجيب.

وأما أدلتهم على المذهب الثاني:

فقد ذهبوا إلى أن ارتباط علم الله - تعالى - بالزمان والمكان والهيئات
يؤدي إلى تغير علمه - سبحانه - بتغير أحوالهم، أو يؤدي إلى أن يتحول
علم الله - تعالى - إلى جهل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. أما كيف ذلك؟

فقد ذهبوا أن الله - تعالى - إذا علم شيئاً من الأشياء أنه سوف
يوجد، حين يوجد ذلك الشيء ويصبح في حيز الوجود فعلاً، فإن علم الله
- تعالى - بأنه سوف يوجد سيكون مقابراً للواقع، لأن الشيء
موجود فعلاً. وحين يفتي الشيء ويقتضى فعلاً فسوف يكون قد وجد
وإنه سوف يكون علم الله - تعالى - السابق بأن الشيء سوف يوجد
مقابراً للحقيقة، وإذا ما نظرنا في شأن محمد - ﷺ - فإن علم الله -
تعالى - قبل وجود محمد - ﷺ - يكون: سوف يوجد، وحين وجد محمد
وصار كائناً، فإنه موجود، ثم بعد موته - ﷺ - فإنه كان موجوداً.

قالوا إن ارتباط علم الله سبحانه بالزمان، فإما أن يظل على حال
واحدة لا يتغير، وهذا حق، لأنه ثابت، ولكنه سوف يكون مقابراً
للواقع، أو يكون جهلاً لا علماً، لأنه إن كان يعلم محمداً - ﷺ - على أنه

سوف يوجد، ثم ثبت على ذلك، فإن محمداً قد صار موجوداً، ثم انتهى وجوده. فعلمه السابق الثابت بأنه سوف يوجد، مغاير للفق، وإذن فليس علماً، بل جهل - تعالى الله عن ذلك -.

وإن ارتباط علمه - تعالى - بالزمان، ثم تغير بتغير الزمان، بأن علم أن محمداً - ﷺ - سوف يبعث، ولما بعث محمد ﷺ ذهب العلم السابق، وجد علم جديد بأن محمداً ﷺ موجود مبعوث، وحين مات محمد ﷺ انقلب علم الله وتغير إلى أن محمداً ﷺ كان موجوداً، كان مبعوثاً، إذا حدث ذلك فالعلم صحيح مطابق للواقع، ولكنه غير لائق بكلام الله - تعالى - . فإن الله - سبحانه - ليس محلاً للحوادث. ولا تغير صفاته، وهذه ثابت لا يتغير فيه تغير ولا تبدل.

ومثل ذلك احتجوا على استحالة ارتباط علم الله - تعالى - بالمكان والهيئات.

وقد ضل هؤلاء القوم ضلالاً بعيداً، وقد وقعوا في الضلال البعيد بسبب أنهم قاسوا الغائب على الشاهد. وحكموا في علم الله - سبحانه - بما يصحرون به في علومهم، في علوم البشر، ووزنوا علم الله - سبحانه - بما يزنون به علومهم، وأخضعوا الله - سبحانه - لنفس القوانين التي ينضج لها البشر في علومهم، بل وكافة أحوالهم.

من هنا فقد أفرقوا في الضلال في هذه القضية، قضية علم الله - سبحانه - كما أفرقوا في الضلال في قضايا كثيرة، وذلك كله بسبب أنهم يقيدون الغائب على الشاهد، ويطبقون قوانينهم على نطاق القوانين - سبحانه -.

ولحق أن هذا الذي ذكره صحيح تماماً بالنسبة إلى علم الإنسان، أو علوم البشر. فلم الإنسان معلول للأشياء والاحداث، وهو علم جزئي يرتبط بكل شيء على حدة. وتغير بتغير الحوادث والوقائع زماناً

ومكانا وأحوالا ، لأنه تابع للأحداث ومعلول لها وفرج عنها . فالإنسان لا يعلم الشيء إلا بمسند وجوده ، ولا يعلم من أحواله إلا بعد حلولها ووقوعها ، وكذا حدث حال ، جيم لها عند الإنسان علم جديد .

أما علم الله سبحانه فهو برىء من هذه النواقص ، هو علم كامل مطلق يشمل الأشياء كلها ، وهرحلة في وجود الأشياء ، ووجود أحوالها ، وكل ما يتصل بها . وهو أزلي وليس بمحدث . وعلم الله ليس متمحزنا حسب الأزمنة والأمكنة والأحوال ، ولكنه علم واحد شامل ، به يعلم الله - تعالى - الشيء متى لا يكون ، ومتى يكون ، ومتى يفتي ، والإنسان لا يكون معدوماً إلا بسبب علم الله أنه يكون معدوماً ، ثم لا يخرج من حيز العدم إلى الوجود إلا لعلم الله - تعالى - بأنه يوجد في زمانه ومكانه . ثم يفتي بناء على علم الله الأزلي أنه يفتي في مكانه وزمانه .

فعلم الله - سبحانه - أزلي ، وهو شامل للأشياء قبل وجودها .

وقد سبق علم الله بالأشياء ذراتها وأحوالها وأمكنة وأزمنتها ، فلا يوجد شيء إلا حسب ما علم الله بوجوده في زمانه ومكانه وأحواله . هذا هو الفيصل في القضية .

• • •

بان لنا بما سبق عقائد الفلاسفة في ثبوت العلم لله - جل وعلا - بأنهم يترددون بين طبعين : أحلاهما مر وأصلهما كفر . وليس من المذهبيين مذهب حلو ولا صالح ، وقد بان لنا أيضاً أنهم يذهبون بمذهب واحد من الاثنين . ولكنهم يوزنون بالتأني ويتخفون وراءه ، فهم يقرمون بأن الله - تعالى - مما يقولون - حلة في وجود الأشياء ، والعلة لا تعقل ما صدر عنها ، ولا تملك من أمره ، بل لا تملك من أمر نفسها شيئاً ، فهي فاعلة قهراً . وكرها دون ما لإدراكه أو علم أو إرادة أو اختيار .. الخ .

وقد شبهوا مصدر العالم عن الله - تعالى - بصدر الحرارة عن النار ،
والضوء عن الشمس ، وكلاهما لا يملك من أمر نفسه وما يصدر عنه شيئاً ،
وكذلك الله - تعالى - عما يعتقدون - هند الفلاسفة .

ولأنهم يؤمنون بأن الله - تعالى - صله ، وأن الأشياء صدرت عنه
- تعالى - مصدر للمعلول من طلته ، فقد اعتقدوا بأن العالم قديم ، لأن علته
قديمة . وما دامت العلة قديمة فالمعلول قديم . لأن المعلول لا يفصل عن
طلته زماناً أو بالزمان .

وهذه عقيدة القوم في صفة العلم لله سبحانه - وهي عقيدة باطلة فاسدة
سواء على المذهب الأول الذي يمثل (عقائد القوم حقيقة ، أو على المذهب
الثاني الذي أراحوا التحلل به أمام الأمة المسلمة ، فإذا هر وسابقه صنوان
في الزيف والضلال والكفر .

فقد أتبعوا الله علما بالأشياء ، في المذهب الثاني ، فكأنه علم هو والجهل
سواء ، علم به بصير المخلوق أعلم من الخالق ، علم كل لا يدري عما يجري في
صوام الله شيئاً ، ولا صلة له إلا بما سمعها ، كليات ، . وهذا تلاعب
بالألفاظ ، والتواء بالأساليب ، محصلته النهائية هي نفي العلم عن الله
- جل وعلا - .

وبذلك يكون القوم قد وقعوا في حماة الكفر ، لأنهم عالفوا صريح
الكتاب ، وصحيح السنة ، وإجماع المسلمين . بل وخالفوا بداهة العقل
ومسلات الفطرة .

لقد كفروا بقول الله - سبحانه - في القرآن العظيم :

[وهذه مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما
تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس
[إلا في كتاب مبين] [سورة الأنعام : ٥٩]

